



أفقت صباح أحد الأيام الماضية على بكاء زوجتي. كانت تنظر إلى الـ«آي باد» وتبكي. سألت عن السبب فوضعت الجهاز أمام عيني، فإذا ب الرجل يدفن حيا لأنه يرفض أن يقول: «بشار الأسد ربي». كان الرجل غارقا في التراب إلى عنقه، وكان من الجلي أنه دفن واقفا، بينما تلقي حوله نفر من عناصر الأمن وفي يد كل منهم رفش.

فجأة، ظهر ضابط في المشهد، وسأل إن كان «ابن الكلب» قد شهد أن لا إله إلا بشار الأسد، فقال الرجل بصوت مخنوق: «لا إله إلا الله».

عندئذ، وضع فوهه بندقية على صدغه وأمرهم بطمراه، فشرعوا يهيلون التراب على رأسه وهو يكرر أن «لا إله إلا الله»، إلى أن غاب ولم يعد يظهر منه أي شيء.

بعد ظهر يوم آخر، قبل ساعات من مشهد دفن الرجل حيا، كانت طائرة تتصف مخبزا في بلدة صغيرة قرب حماه اسمها حلفايا، تجمع أهلها طلبا للخبر.

أما حصيلة الغارة، فكانت 300 قتيل هشمتهم القنابل التي ألقاها عليهم. **ذكرتني هذه الجريمة بأمررين:**

جريمة نازية وقعت ضد قرية بوهيمية ذبح خلالها قرابة 300 شخص، بقيت إلى اليوم في ذاكرة عالمنا المنافق، الذي لا يرى ما يرتكب من جرائم يومية مماثلة ضد سوريا والسوريين من جميع الأعمار والفئات. وذكرتني كذلك بقصيدة للحطبيئة (إن كانت الذاكرة تسعف) تصف صيادا يترصد ظبية ترد الماء، وكيف أمهلها حتى «ارتوت

من عطاشها» قبل أن «يرسل فيها من كنانته سهما».

هذه الواقعة اعتبرت دوماً خير تجسيد لأخلاق الشهامة والكرم العربية، التي لا تجيز قتل طيبة تطلب الماء وهي عطشى. **قارنت أخلاق العرب بأخلاق نظام لم يتوقف يوماً عن التشدق بالعروبة وقيمة، لكنه ما إن طاله شعبه بحقوقه أو بشيء منها، حتى سارع إلى دفن بناته وأبنائه أحياء أو قصفهم وهم ينتظرون رغيف خبز لهم ولأحبائهم.**

قبل أيام من قصف فرن حلفايا، قصف فرن في حلب، واليوم يتصف حي البياضة في حمص بثمانيني عشرة قبلة محملة بغاز السارين السام، وغداً ستتصف سوريا الثائرة بكل ما يملكه النظام من أسلحة دمار شامل، بعد أن قصف قبلها داريا بغاز السارين القاتل إيه، دون أن يكون هناك أي رد فعل من أي جهة دولية، وخاصة الرئيس الأميركي باراك أوباما، الذي وضع قبل قرابة شهر خطين أحمررين شجعاً السلطة الأسدية على تصعيد القتل، عندما «حضرها» من تجاوز أي منهما، فإذاً هما: إسرائيل والحفاظ على الأسلحة الكيماوية كي لا تقع في يد متطرفين أو ترسل إلى حزب الله.

قال أوباما إن تدخله فورياً سيحدث إن وقع واحد من هذين المحظوظين، ففهمنا يومها أنه يطلق بد الأسد في شعبه، ويسمح له بتصفه بكل ما يملك من طائرات ومدافع ودبابات وراجمات صواريخ وصواريخ ثقيلة.

وكان المدافعون الدوليون عن الإنسان وحقوقه قد أخبرونا في فترة مبكرة من الصراع أنهم قرروا أن لا يحيلوا أحداً من أرباب نظامنا وأتباعه إلى محكمة الجنائيات الدولية، لسبب لا يعلمه إلا الله، رغم أن هؤلاء لم يتركوا بيتنا أو قرية أو بلدة أو مدينة سورية من شرهم، وفتكوا بالبشر كأنهم نمل ليس لهم حياة وحقوق يجب أن تُحترم.

للذكرى بمعنى مأساتنا:

شتت إسرائيل حرباً دامت عشرة أيام ضد غزة التي كانت تتصف مدنها المختلفة بالصواريخ، قتل خلالها 108 أشخاص، وهو عدد يوازي عدد من قتلوا في حلب وحدها خلال يوم واحد، مع أن حلب لم تكن تتصف أحداً بالصواريخ، بل كانت تطالب بالحرية والإصلاح.

واليوم، والشهادات الميدانية المباشرة تقول إن عدد القتلى من السوريات والسوريين تجاوز عتبة المائة ألف، وعدد من تشردوا وهاموا على وجوههم وهجروا واعتقلوا ولو حقووا وعذبوا وجرحوا واحتفلوا بالمالين، يبدو العالم وكأنه مرتاح لما يجري، أو كأنه يشارك النظام في إدارة مجزرته المنظمة ضد شعب يتعرض منذ قرابة عامين للقتل، بعد أن تعرض قرابة نصف قرن للإذلال والاضطهاد والإهانة والنهب والإفساد، تحت سمع العالم المؤيد للنظام الأسد وبيصره.

ماذا يمكننا أن نقول عن عالم يسكت على هذه المأساة الإنسانية المرعبة؟

وهل نصدق بعد اليوم أن هناك مؤمنين بالإنسان ومدافعين عن حياته وحقوقه، إذا كان ذبح البشر يتم بأكثر الصور علنية وأكثر الأسلحة الحديثة فتكاً، دون أن يثير أدنى شعور بالشفقة، ناهيك عن الاعتراض لدى المترفين، الذين ينقسمون إلى مؤيدين مصطفين وآخرين صامتين، وفي الحالتين إلى شهود لا يرون شيئاً مما يجري، لأن موت السوريين بالجملة لا يعني شيئاً، أو كأنهم نمل وليسوا بشراً؟

أليس العالم متواطئاً بصمته وموافقته وشريكه في القتل؟

وهو الذي عطل الحمايات القانونية والإنسانية لشعب يباد كالذباب، وبدأ قتله البارحة بالغازات السامة في كل من حمص وداريا، دون أن يصدر ولو رد فعل كلامي على ما وقع، أو يتحرك أصحاب الخطوط الحمراء، التي يبدو أنها لم تبطل ما أعطوه للنظام خلال نصف قرن من خطوط حضراء وبليضاء، تمكنه أن يفعل ما يريد؟

وهل سيعيد العالم السوريات والسوريين إلى الحياة من خلال تصريحات طافحة بالكذب والرياء تتحدث عن التقصير، مثلما حدث في حالات مماثلة سابقة، وقع تجاوزها دوماً بواسطة تعهدات لفظية تنم عن انعدام الإنسانية والضمير لدى من

أطلقواها، تدعى أنهم لن يسمحوا بتكرارها، لكن هذا لم يمنعهم من الوقوف مكتوفي الأيدي طيلة قرابة عامين على مذبحه منظمة بإتقان ضد شعب سوريا: أحد أقدم الشعوب المتحضرة، الذي يعصف القتل بكل شيء لديه، بما في ذلك أوابده التاريخية التي تتعرض لقصف منهجي يدمرها ويهموها من الوجود، أو يجعلها عرضة للسرقة والتشويه، مع أنها إرث إنساني يلزم القانون الدولي جميع البلدان بالمحافظة عليه وحمايته؟

ليس الموقف الدولي مما يجري في سوريا مقبولا بأي معيار، ولا شك في أنه ستكون له نتائج خطيرة على حقوق وحياة البشر والشعوب في كل زمان ومكان، وعلى أمن وسلم عالم أثبت أنه لا يقيم وزنا للإنسان، فلا عاصم له عن دفع ثمن فادح سيترتب على امتناعه المقصود عن صيانة أمنه الخاص عبر امتناعه عن احترام ما يمليه القانون الدولي والتضامن الإنساني من احترام حق السوريين في الحياة والحرية والأمان.

ثم لا يخلون من أنفسهم، ويحدثونك عن جنوح ضحايا الإبادة الشاملة إلى التطرف!

الشرق الأوسط

المصادر: